



٣٠٠٠٠١٤

مجلة
جامعة أم القرى
للبحوث العلمية المحكمة

العدد الرابع عشر

السنة العاشرة ، ١٤١٧ هـ (١٩٩٦ م)



٣٠٠٠٠١٤-٤

رؤية تاريخية لصفات مكة عند أهل الكتاب

دكتور

علي بن محمد عودة الغامدي

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ الإسلامي - كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد :

يتناول هذا البحث نقطة مهمة جداً هي صفات مكة والبيت الحرام عند أهل الكتاب من خلال كتبهم المقدسة التي بين أيديهم حيث أشار القرآن الكريم إلى ذلك قال تعالى :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقد أثبت في هذا البحث أن صفات مكة ، كما أثبتتها الواقع التاريخي ، موجودة في الأسفار التي عند أهل الكتاب . وقد أوردت تلك النصوص ، وعلقت عليها في ضوء القرآن والسنة وفي ضوء الواقع التاريخي لمكة المكرمة . والله ولي التوفيق ...

مقدمة :

الأمر الذي لا شك فيه أن أهل الكتاب ، لا سيما الأحيار والرهبان ، قاموا بتحريف التوراة والإنجيل ، فزادوا ونقصوا تبعاً لأهوائهم . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك ، قال تعالى :

﴿ أَتُطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْغُفُونَ عَنْهَا وَإِنْ يُرْجَعُونَ إِلَى اللَّهِ لَشَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (١)

وقال تعالى : (٢)

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ... ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ إِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٥)

١ - البقرة : ٧٥ .

٢ - مريم : ٧٧ .

٣ - النساء : ٤٦ .

٤ - المائدة : ١٣ .

فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿١﴾ .

وقد أفرد عدد كبير من العلماء كتباً خاصة ، بينوا فيها بالأدلة النقلية والعقلية ، تحريف أهل الكتاب لكتبهم المقدسة (٢) . ومن تحريفاتهم في كتبهم المقدسة والمستمرة عبر القرون ، إخفاء اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، واسم مكة والكعبة المشرفة ، وطمس التصريح بهما ، بدليل أن شيخ الإسلام ابن تيمية أورد شواهد من أسفار العهد القديم فيها اسم محمد صلى الله عليه وسلم صراحة . وصفات مكة واضحة (٣) . والمعروف عن شيخ الإسلام دقته في النقل . وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذا لا ينفي وجود بقايا من حق باهت في تلك الأسفار بشرط أن يتفق مع القرآن والسنة ، أو ما يتطابق مع صفات محمد صلى الله عليه وسلم وصفات مكة والبيت الحرام .

من الحقائق المسلم بها أن أول بيت وضع للناس على هذه الأرض ، هو البيت العتيق بمكة ، وذلك بنص القرآن الكريم والحديث الصحيح ، قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعلمين فيه آيات بينت مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله

- المائدة : ٤١ .

- انظر على سبيل المثال : ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ابن القيم ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، الشهرستاني : الملل والنحل ، عبد الله الرحمن : تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ، رحمة الله الهندي : إظهار الحق .

- انظر الجواب الصحيح ج ٣ ص ٣١٩ ، ٣٢٦ - ٣٣٠ ، ج ٤ ص ٣ - ٤ .

على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العلمين ﴿١﴾ .

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي ذر قال : (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال : المسجد الحرام . قلت . ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة) (٢) .
وجاء في الحديث الصحيح عن أبي ذر قال : (قلت يا رسول الله . أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة) (٣) .
والمقصود بالحديث هنا بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت العتيق ، ثم بناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بعد ذلك للمسجد الأقصى (٤) .

رؤية تاريخية لصفات مكة عند أهل الكتاب :

لا شك أن علماء أهل الكتاب يعلمون بالضرورة ، أن الكعبة المشرفة هي بيت الله الأول على هذه الأرض ، وأنها قبلة الناس جميعاً ، وأن الله قد جعل أفئدة من الناس تهفوا إليها . قال تعالى ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضها فول وجهك شطر

١ - آل عمران ٩٦ ، ٩٧ .

٢ - صحيح البخاري (فتح الباري) حديث رقم ٣٣٦٦ ج٦ ص ٤٦٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي ج٥ ، ص ٢ ، وانظر أيضاً ابن القيم : زاد المعاد ج١ ص ٤٩ ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج١ ص ١٠٤ .

٣ - ابن القيم : زاد المعاد ج١ ص ٤٩ ، ٥٠ .

٤ - ابن القيم : زاد المعاد ج١ ص ٤٩ ، ٥٠ .

المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغفل عما يعملون ﴿١﴾ .
فأهل الكتاب يعلمون هذه الحقيقة الناصعة ، ولكنهم يحاولون كتمها ، كما هي عادتهم في كتمان الحق ، ولا سيما فيما يتصل بهذه الأمة ، ونبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، حسداً من عند أنفسهم .
ولابد لنا هنا من وقفة مع أهل الكتاب لنستخرج هذا الحق الذي يعلمونه من كتابهم الذي بين أيديهم . فنجد في الكتاب المقدس في التزمور الرابع والثمانين من العهد القديم بعنوان " تمجيدات ساكن في بيت الله " النص التالي " إلى أي مدى تكون ديارك محببة إلى النفس يا رب الجنود . تشتاق بل تتوق نفسي إلى ديار الرب . قلبي ولحمي يشكوان للإله الحي . العصفور وجد بيتاً والسَّونة عُشّاً لنفسها حيث تضع أفراخها ، ماذا بك يا رب الجنود مَلِكِي وإلهي . طوبى للسَّاكنين في بيتك ، إنهم سوف يكونون في المستقبل يَسْبِّحُونَكَ . طوبى لرجل شدته تكون فيك ، قلبه يحمله إلى الحجّ عندما يعبرون في وادي بكاء يجعلونه ينبوعاً . المطر أيضاً يغطيه بالبرك ، يمضون من قُوَّة إلى قُوَّة " (٢) .

وحين ترجم أهل الكتاب النص إلى العربية حرّفوا فيه حتى لا تظهر صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته ولا يظهر اسم مكة ، وحذفوا كلمة الحج واستبدلوا بها ترجمة أخرى لتصرف المعنى عن مكة

١ - البقرة ١٤٤ .

2- Holy Bible . The New King James Version containing the Old and New Testaments . Thomas Nelson Publishers Nashville 1982. P. 402 PSALM 84 .

وعن الإشارة إلى بئر زمزم فجاء النص المترجم بالعربية كما يلي : " ما أحلى مساكنك يارب الجنود ، تشتاق بل تتوق نفسي إلى ديار الرب ، قلبي ولحمي يهتفان بالإله الحي ، العصفور أيضاً وجد بيتاً والسنونة عشا لنفسها حيث تضع أفرانها ، مذبذبك يارب الجنود ، ملكي وإلهي . طوبى للساكنين في بيتك أبداً يسبحونك ، طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً أيضاً ببركات يغطون مورة ... " (١)

بينما نجد في طبعة الملك جيمس باللغة الإنجليزية - وهي الطبعة المعتمدة في سائر الأوساط العلمية في أنحاء العالم لدقتها وسلامة ترجمتها - النص الصحيح الذي أوردنا ترجمته الحرفية أولاً والنص بالإنجليزية هو :

(... How lovely is your tabernacle , O Lord of hosts ! My soul longs . yes even faints for the Courts of Lord : My heart and my Flesh cry out for the living God . Even the sparrow has found home and the swallow a nest for herself , where she lay her young even your altars . O Lord of hosts My King and my God. Blessed are those who dwell in your house : They will still be praising you . Blessed is the man , whose strength is in you . Whose heart is set pilgrimage as they pass through the valley of Baca . They make it spring . The rain also covers it with pools . They go from strength to strength) (٢) .

فهذه الصفات الواردة في نص سفر المزامير ، لأن التوراة هي المنزلة على موسى عليه السلام ، والمزامير هي الزبور المحرف لا تنطبق

١- الكتاب المقدس : العهد القديم ، مزامير ، الزمور الرابع والخمسون ١-٧ ص ٨٩٢ .

٢- Holy Bible ; P. 402 , PSALM 84 .

إلا على مكة والبيت العتيق ، فهي حرم الله وبيته الآمن عبر التاريخ لما جاء في الحديث " حرمها الله يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ... " (١) .

وقد سكنت حرمة في مكة في قلوب الناس ، فكان الرجل يلقي في الحرم قاتل أبيه فلا يرفع نظره إليه ، حتى إن العصفور وجد فيها مكاناً آمناً ، كما يذكر نص التوراة . ولا يمكن أن تكون صفة الأمن هذه متوفرة في بيت المقدس التي شهدت عبر عصور التاريخ من المعارك والمذابح ، وانتهاك المقدسات والحرّمات ، ما لم تكد تشهده مدينة أخرى على وجه الأرض . ومن ذلك على سبيل المثال : المذابح التي أحدثها الفراعنة ، والآشوريون من بعدهم ، ثم البابليون بقيادة بختنصر ، ثم الرومان ، والفرس من بعدهم ، ثم ما أحدثه الصليبيون فيها ، وما تعانيه من اضطراب على أيدي اليهود في العصر الحاضر . ولم يشعر بيت المقدس بالأمان إلا إبان الفتح الإسلامي زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما تلاه من عصور إسلامية . فالأمن الذي يتحدث عنه المزمور إنما هو الأمن السائد في مكة والبيت العتيق . ونص المزمور يقول " طوبى للساكين في بيتك ، إنهم سيكونون في المستقبل يسبحونك " وهذه الصفة لا تنطبق إلا على البيت العتيق ، وعلى أمة

- الحديث أخرجه البخاري (فتح الباري) ٤٢٩٥ ج ٧ ص ٦١٤ في كتاب المغازي : باب منزل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، وفي باب العلم : باب ليبلغ الشاهد الغائب ، وفي الحج : باب لا يعصد حجر الحرم : وأخرجه مسلم : انظر مسلم بشرح النووي : ج ٩ باب تحريم مكة ١٢٣ - ١٢٦ ، والزمزيمي (٨٠٩) : والنسائي ٢٠٤/٥ و ٢٠٥ و ٢٠٦ ، ومسند أحمد ٣/٣١ ، ٣٢ من حديث أبي شريح .

محمد صلى الله عليه وسلم ، التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس . ثم يقول نص الزمورة " طوبى لرجل تكون شدته فيك " . فمن هو هذا الرجل ؟ أليس هو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي كان أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها (١) .

فلم تكن شدته إلا في ذات الله سبحانه وتعالى . ومن ينكر أن هذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو كمن رام أن يحجب ضوء الشمس في رابعة النهار . ومن هم الذين يعبرون في وادي مكة غير محمد وأصحابه وأمته من بعده . والينبوع الذي ذكره نص الزمور في وادي بكة أليس هو زمزم ؟ ومن هم الذين يعضون من قوة إلى قوة ؟ أليس هو محمد وأصحابه وأتباعه ، الذين ظلوا كذلك حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها .

والنصوص كثيرة في العهد القديم والجديد أو في الأسفار اليهودية والأنجيل التي بأيدي أهل الكتاب التي تتحدث عن مكة والبيت العتيق . وبرغم إيماننا بأن أهل الكتاب حرفوا في كتابهم المقدس، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، فإن حذفهم اسم مكة من نصوص كتابهم لم يمح الأوصاف التي بقيت التي لا تنطبق إلا على مكة، ولا تلائم إلا بيت الله المحرم . وقد أشار إلى بعض تلك الأوصاف شيخ

١ - صحيح البخاري (فتح الباري) ج ٦ حديث رقم ٣٥٦٠ و ٣٥٦٢ ، ص ٦٥٤ باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم .

الإسلام ابن تيمية في كتابه : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١) وسوف نعرض فيما يلي بعض تلك النصوص التي نتحدث ونصف مكة ثم نقوم بالتعليق عليها .

فالإصحاح الرابع والخمسون من سفر أشعيا يتحدث بأكمله عن مكة شرفها الله تعالى . فيقول نصه كما جاء في ترجمته العربية : " ترغبي أيتها العاقر التي لم تلد ، أشيدي بالزمن أيتها التي لم تمخض ، لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الرب . أوسع مكان خيمتك ، وتبسط شقق مساكنك ولا تمسكي ، أطيلي أطنابك وشددي أوتادك . لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ، ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة . لا تخافي لأنك لا تخزين . ولا تخجلي لأنك لا تستحين . فإنك تنسين خزي صباك وعار ترملك لا تذكرينه بعد . لأن بعلك هو صانعك رب الجنود اسمه ووليك قدوس إسرائيل إله كل الأرض يدعى . لأنه كامراً مهجورة ومخزونة الروح دعاك الرب كزوجة الصبا إذا رذلت قال إلهك . لحيلة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وبإحسان أبدي أرحمك قال وليك الرب . لأنه كمياه نوح هذه لي . كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك ، فإن الجبال تنزول والآكام تتزعزع ، أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب .

١ - الجواب الصحيح ج ٣ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

أيتها الدليلة المضطربة غير المتعزية هأنذا أبني بالأثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسسك وأجعل شرفك ياقوتاً وأبوابك حجارة بهرمانية وكل تخومك حجارة كريمة . كل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيراً بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين وعن الارتعاب فلا يدنو منك . ها إنهم مجتمعون اجتماعاً ليس من عندي . من اجتمع عليك فإليك يسقط هأنذا قد خلقت الحداد الذي ينفخ الفحم في النار ويخرج آلة لعمله وأنا خلقت المهلك ليخرب .

كل آلة صورت ضدك لا تنجح ، وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه . هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندي يقول الرب " (١) .

فالمراد بالعاقِر هنا في سفر أشعيا مكة شرفها الله تعالى - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (لأنها لم تلد قبل نبينا عليه السلام . ولا يجوز أن يريد بالعاقِر بيت المقدس ، لأنه بيت الأنبياء ، ومعدن الوحي ، فلم تزل تلك البقعة ولادة) (٢)

والمقصود ببني المستوحشة الذين يكونون أكثر من بني ذات البعل : أن بني هاجر التي ذهب بها إبراهيم عبر تلك البرية الموحشة إلى وادٍ غير ذي زرع ، وأسكنها فيه مع ابنها الرضيع إسماعيل ، يكونون أكثر من بني ذات البعل ، أي سارة التي عاشت دائماً مع إبراهيم عليه السلام .

١ - الكتاب المقدس : العهد القديم : سفر أشعيا ، الإصحاح الرابع والخمسون ١-١٧ .

٢ - ابن تيمية : الجواب الصحيح ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

والنص يشير إلى توسع مكة ، وفتوح أبناء إسماعيل فيقول : " أرسعي مكان خيمتك ، ولتبسط شقق مساكنك . لا تمسكي أطيلي أطنابك وشددي أوتادك . لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ، ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة " . وهذه الصفات لم تنطبق في التاريخ إلا على مكة والبيت العتيق ، فهي التي امتدت يميناً ويساراً ، أي شرقاً وغرباً ، وامتد نفوذها على أيدي بنيتها بني إسماعيل ، وهم وحدهم الذين ورثوا أمماً وعمروا مدناً خربة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها) (١) . فمن تمت على يديه هذه الأفعال العظام غير بني مكة بني إسماعيل عليه السلام ، الذين ورثوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مشارق الأرض ومغاربها وورثوا كل الأمم السابقة مثل الفراعنة والفرس ، والروم ، والسريان وغيرهم ؟ وهل توجد أمة عمرت من المدن والخواضر مثلما عمره المسلمون إبان ازدهار حضارتهم ؟ ويقول النص : " خيطة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك " والواضح أن تلك اللحظة هي منذ أدخل عمرو بن لحي الخزاعي عبادة الأصنام إلى مكة ، وعلّق هُبَل في جوف الكعبة وحرف العرب عن دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام (٢) ، حتى

١ - صحيح مسلم بشرح النووي ج٨ ص ١٣ كتاب الفتن وأشراط الساعة .

٢ - رأى النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه - أمعاءه - في النار بسبب ما قام به من تحريف ديانة إبراهيم عليه السلام . انظر فتح الباري ج٦ حديث رقم ٣٥٢١ وشرحه ص ٦٣٣-٦٣٤ ، ج٨ ، حديث رقم ٤٦٢٣ ص ١٣٢ - ١٣٣ ؛ وانظر أيضاً الكلبي : كتاب الأصنام ص ٨ .

ظهر محمد صلى الله عليه وسلم ، وطهر الكعبة المشرفة من الأصنام يوم الفتح الأعظم . وتلك المدة التي مكثها الأصنام في الكعبة إنما هي لحظة عند الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (١) ثم رحم الله مكة والبيت العتيق بكتابه المبين ورسوله الكريم وخير أمة أخرجت للناس : " فإن الجبال تنزل والآكام تتزعزع ، أما إحساني فلا ينزل عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب " والحق أن هذا لم يتحقق عبر عصور التاريخ لأي مدينة من المدن سوى لمكة المكرمة ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ... ﴾ (٢) فالسلام الإلهي الذي لم يتزعزع عبر الزمن إنما كان لمكة ولم يكن لمدينة غيرها ، وقد روى الأزرقى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وجد في الحجر كتاب من خلقه الحجر " أنا الله ذو بكة الحرام ، وضعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تنزل أخشابها ... " (٣) .

وقول النص : " هأنذا أبني بالإثمد حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك وأجعل شرفك ياقوتاً وأبوابك حجارة بهرمانية وكل تخومك حجارة كريمة " فهذا الوصف لا ينطبق إلا على الكعبة المشرفة والمسجد الحرام ولا سيما ما شهده من عمران باهر في العصر الحاضر .

١ - الحج : ٤٧ .

٢ - العنكبوت : ٦٧ .

٣ - الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٧٨ : وانظر أيضاً محب الدين الطبري : القرى لقاصد أم القرى ص ٦٤٨ .

"بَيْنِكَ تَلَامِيذُ الرَّبِّ وَسَلَامُ بَنِيكَ كَثِيرٌ" فَهَلْ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى؟! لَمَّا عَرَجَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ وَمَرَّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى فَقِيلَ لَهُ: مَا أَبْكََاكَ؟ فَقَالَ يَا رَبِّ: هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي بَعَثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي (١)

وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) (٢).

فَمَنْ هُم تَلَامِيذُ الرَّبِّ؟ أَهْمُ الَّذِينَ قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ هَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾؟ أَمْ الَّذِينَ قَالُوا لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِذْ هَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مَقَاتِلُونَ"؟ "وَسَلَامُ بَنِيكَ كَثِيرٌ" فَأَيُّ أُمَّةٍ سَلَامُهَا كَثِيرٌ غَيْرُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إِنْ التَّقَى بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ سَلِمُوا عَلَى بَعْضِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" وَرَدُّوا عَلَى بَعْضِهِمْ بِمِثْلِ

١ - صحيح البخاري (فتح الباري) حديث رقم ٣٨٨٧ جـ ٧ ص ٢٤١ - ٢٤٢ : صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢، ص ٢٢٤ : مسند أحمد جـ ٤ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، اللؤلؤ والمرجان جـ ١، ص ٣٧ .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٩٥ : وقد أخرجه أيضاً البخاري عن أبي سعيد الخدري ، انظر البخاري (فتح الباري) جـ ٦ حديث رقم ٣٣٤٩ ، ص ٤٤٠ .

ذلك . وإن افترقوا افترقوا بالسلام . وبسلامهم في كل صلواتهم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أنفسهم وعلى إخوانهم من العباد الصالحين بقولهم " السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " واختتامهم صلواتهم كلها بالسلام . وإذا ختموا صلواتهم رفعوا أصواتهم قائلين " اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام " ، وإذا قدموا للحج أو العمرة دخلوا إلى المسجد الحرام من باب السلام وقالوا : " اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حيناً ربنا بالسلام ، وأدخلنا الجنة دار السلام " . فهذا الوصف الوارد في سفر أشعيا لا ينطبق إلا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين أخذوا مكة والبيت العتيق قبله لهم ولا يمكن أن ينطبق على مدينة غيرها .

وعندما يقول النص " بالبرّ تثبتين بعيدة عن الظلم ، فلا تخافين ، وعن الارتعاب فلا يدنو منك " . فهذه صفة لا تناسب إلا مكة البلد الحرام ، ولا تنطبق على ما سواها ، فلا ظلم فيها أبداً لأن الله تعالى يقول : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ، ويقول النص : " الواقع إنهم سوف يجتمعون بثقة ولكن ليس بسبي " (١) ولما كان الإصحاح على لسان أشعيا فهو يقول : إن اجتماع الناس للحج في مكة ليس بسبيه ، وهذا حق فهو بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام " ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهرت بيته ﴾

^١ - رجعت في هذه الجملة إلى النسخة الإنجليزية لأنها أدق من الترجمة العربية . انظر Holy Bible

:Isaiah , 54 , P. 497

لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١﴾ .

ويقول النص : " من اجتمع عليك فإليك يسقط .. كل آلة صوّرت ضدّك لا تنجح ، وكلّ لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه ". فمكة هي المدينة الوحيدة على وجه الأرض التي نجت من كل مؤامرات الأعداء . وهي المدينة الوحيدة التي سحقت كل القادمين إليها بشروهم عبر العصور المختلفة منذ التباة ومروراً بأبرهة وحتى الرافضة في العصر الحاضر .

ليس هذا فحسب بل نجد صفات مكة وبيتها العتيق - كما أثبت تلك الصفات الواقع التاريخي عبر العصور - في الإصحاح الستين من سفر أشعيا الذي يتحدث بأكمله أيضاً عن مكة وبيت الله المحرم . وسنعرض النص هنا ثم نقوم بشرحه والتعليق عليه " قومي استنيري ، لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه هاهي ذي الظلمة تغطي الأرض ، والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى . فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك . ارفعي عينيك حواليك وانظري . قد اجتمعوا ، كلهم جاءوا إليك . يأتي بنوك من بعيد ، وتحمل بناتك على الأيدي . حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع ، لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتي إليك غنى الأمم كثرة الجمال تغطي أرضك كلها . الجمال العربية من مدين وعيفة ومن سبأ سوف تأتي تحمل ذهباً ولباناً ، تنادي بتسايح الرب . كل

غنم قِدار تجتمع إليك كباش نبايوت، تصعد مقبولة على مذبحي .
وسوف أعظم البيت لتسيحي . من هؤلاء الطائرون كالسحاب
وكالحمام إلى بيوتها ؟ إن الجزائر تنتظرنني ، وسُفُن ترشيش^(١) في
الأول لتأتي ببنيك من بعيد ، وفَضَّتْهم وذَهَبَهم معهم ، لاسم الرب
إلهك وقدوس إسرائيل لأنه قد مجَّدك .

وبنو الغريب ينون أسوارك وملوكهم يخدمونك ، لأنني بغضي
ضربتكَ ، وبرضواني رحمتك . وتفتتح أبوابك دائماً ، نهراً وليلاً لا
تغلق . ليؤتي إليك بغني الأمم ، وتقاد ملوكهم . لأن الأمة والمملكة لا
تخدمك تبيد ، وخراباً تخرب الأمم . مجد لبنان سوف يأتي إليك .
السَّرو والسَّنديان والشَّرين معاً لزيينة مكان حرمي ، وسوف أجعل
مكان رجلي معظماً .

وبنو الذين أحزنوك يسيرون إليك خاضعين ، وكل الذين
أهانوك يخرُّون ساجدين عند باطن قدميك ويدعونك مدينة الرَّب ..
عوضاً عن كونك مهجورة ومبغضة بلا عابر بك ، أجعلك فخراً أبدياً
فَرَح دور فدور . وترضعين لبن الأمم، وترضعين ثدي ملوك ، وتعرفين
أنني أنا الرَّب ، مخلصك ووليكَ عزيز يعقوب . عوضاً عن النحاس آتي
بالذهب ، وعوضاً عن الحديد آتي بالفضة ، وعوضاً عن الخشب

^١ - ترشيش بالفتح : اسم مدينة تونس التي بأفريقية .

قال الحسن بن رشيق القيرواني : ترشيش اسم مدينة تونس بالرومية . انظر : ياقوت : معجم
البلدان، مادة ترشيش .

بالنحاس وعوضاً عن الحجارة بالحديد ، وأجعل وكلاءك سلاماً ،
وولاتك برّاً .

لا يسمع بعد ظلم في أرضك ، ولا خراب أو سحق في تخومك
بل تسمين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسيحاً ، لا تكون لك بعد
الشمس نوراً في النهار ، ولا القمر ينير لك مضيئاً بل الرب يكون لك
نوراً أبدياً وإلهك زينتك . لا تغيب بعد شمسك وقمرك لا ينقص ، لأن
الرب يكون لك نوراً أبدياً وتكمل أيام نوحك . وشعبك كلهم أبرار .
إلى الأبد يرثون الأرض غصن غرسي عمل يدي لأتمجد . الصغير يصير
ألفاً ، والحقير أمة قوية . أنا الرب في وقته أسرع به " (١) .

وقبل أن نبدأ في تحليل هذا النص والتعليق عليه ، يجدر بنا أن
نشير إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد تبنى لهذا الإصحاح في سفر
أشعيا ، الذي يتحدث عن مكة وصفاتها . وقد أورد فقرات صغيرة منه
وعلق عليها . وتختلف تلك الفقرات قليلاً عن النص الحالي المترجم إلى
العربية وعن ترجمة الملك جيمس بالإنجليزية ، مما يشير إلى أن شيخ
الإسلام اعتمد على ترجمة مختلفة في زمنه ، أو أن أحبار يهود ظلوا على
عادتهم في تحريف الكلم عن مواضعه ، لإخفاء اسم مكة واسم محمد
صلى الله عليه وسلم وأمه ، إذ إن تلك النصوص التي أوردتها شيخ
الإسلام تذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم صراحة ، وتورد صفات

١ - الكتاب المقدس : العهد القديم ، أشعيا ، الإصحاح السون ١-٢ وانظر أيضاً . . Holy Bible

Isaiah . 61 . P. 501 .

مكة بصورة أوضح (١). وبرغم ذلك فإن الإصحاح الذي أوردنا نصه آنفاً يتحدث جميعه عن مكة ومستقبلها منذ زمن أشعيا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . يقول النص " قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك " وهذه بشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وبدء نزول الوحي عليه في غار حراء حيث كانت تلك الحادثة بداية التحول في تاريخ البشرية لإخراجها من الظلمات إلى النور، وبدء نزول آخر الكتب وأفضلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي يضم المنهج الصحيح الذي ينبغي أن تسير عليه البشرية لتتال سعادة الدارين " لأنه ها هي ذي الظلمة تعطي الأرض والظلام الدامس الأمم " . وهذه الحالة كانت حقيقة واقعة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أشار القرآن الكريم إليها بقوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (٢) .

كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة فقال : " إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب (٣) . وأولئك البقايا من أهل الكتاب - وهم قليل بالقياس إلى عامة النصارى واليهود - هم الذين عرفوا الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأمنوا به مثل عبد الله بن سلام ،

١ - انظر : ابن تيمية : الجواب الصحيح ج ٣ ص ٣٢٦ - ٣٣٠ .

٢ - الروم : ٤١ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٧ .

والنجاشي ، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم . " أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى . فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك " . وقد أشرق الله بنوره على مكة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم لينقشع الظلام الدامس ويعبد الله وحده لا شريك له وينتصر دينه ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ فتشرق مكة بنور الله ، وتظهر من الأصنام ، ويتلو محمد صلى الله عليه وسلم وهو يسقط الأصنام بمحجته يوم الفتح الأعظم قول الله تعالى ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (١) ومنذ ذلك الحين سارت الأمم والملوك في هدي النور الذي أنزله الله على نبيه بمكة التي أشرقت على الدنيا فأنارتها بالقرآن العظيم .

ويقول النص : " ارفعي عينيك حوايك وانظري . قد اجتمعوا كلهم ، جاءوا إليك . يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي " فها هي الجموع في كل موسم وفي كل حين تأتي إلى مكة لأداء فريضة الحج والعمرة من كل حذب وصوب وها هم أولاء بنو إسماعيل الذين انساحوا في مشارق الأرض ومغاربها ناشرين الدين الحق يأتون إليها من بعيد للحج والعمرة . وتزدهي مكة بقدمهم ويخفق قلبها لهم وتتسع جنباتها لكل القادمين رغم كثرتهم . " لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتي إليك غنى الأمم " فأي مدينة على وجه الأرض حدث لها هذا عبر العصور غير مكة ؟ ! فهي الوحيدة التي تحقق لها هذا استجابة من الله

سبحانه وتعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (١) فكما يشهد التاريخ كانت وما زالت الغلال والثمار والسلع والأموال ترد من كل مكان إلى مكان ، وتأتيها النفقات والهبات من سائر أقطار المسلمين فضلاً عن الهدايا والتحف والكسوة الثمينة التي كان يبعث بها الخلفاء والسلطين للكعبة . بل نجد كل مسلم في أقطار الأرض يوفر من قوت يومه عبر سنوات طويلة ثم يأتي بما جمعه طوال عمره لينفقه في مكة مؤدياً فريضة الحج والعمرة .

" كثرة الجمال تغطي أرضك . الجمال العربية من مدين وعيفة (٢) جميعها من سبأ سوف تأتي تحمل ذهباً ولبناً تنادي بتسايع الرب " فأى أرض في الدنيا غطتها الجمال غير مكة ؟ التي كانت جموع الجمال تساق إليها هدياً بالغ الكعبة عبر عصور التاريخ منذ إبراهيم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفي كل موسم حج تكتظ نواحيها بالجمال العربية القادمة من كل مكان ، من مدين وعيفة في شمال جزيرة العرب ، ومن سبأ يأتي أهلها بالجمال التي تحمل السلع والتوابل والذهب واللبن ، ومنذ أن يصلوا إلى المواقيت يلبسون ثياب

١ - إبراهيم : ٣٧ .

٢ - يذكر سفر التكوين ٢٥ : ٢-٤ أن إبراهيم عليه السلام تزوج بعد وفاة مارة زوجة اسمها قطورة فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا . وولد بقشان شبا وددان . وكان بنو ددان آشوريم ولطوشيم ولأميم . وبنو مديان عيفة وعفر ، وحنوك ، وأبيداع ، والدعة . العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الخامس والعشرون ٢-٥ ، ص ٣٨ .

الإحرام وينادون بالتلبية طوال طريقهم إلى مكة ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومت على ما رزقهم من بهيمة الأنعم فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ (١) .

" كل غنم قيذار تجتمع إليك كباش نبايوت تخدمك . تصعد مقبولة على مذبحي " وقيدار كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " هو ابن إسماعيل باتفاق الناس ، وربيعة ومضر من ولده ومحمد صلى الله عليه وسلم من مضر " (٢) ومن أراد أن يصرف شيئاً من هذا النص عن مكة إلى مدينة أخرى غيرها فهو كمن يزعم أن الشمس لا تشرق إلا من المغرب !!! فغنم العرب من بني قيذار بن إسماعيل لا تجتمع إلا في مكة ، في منى ، وفي أيام الحج من كل عام . وكباش نبايوت وهو نابت بن إسماعيل وشقيق قيذار ، ونبايوت هو بكر إسماعيل (٣) لأنه لم يذكر التاريخ أن شاة أو جملأ واحداً من أنعام هؤلاء سيقت إلى بيت المقدس للذبح هناك . وجميع تلك الأغنام والكباش يتقبلها الله سبحانه وتعالى من عباده حين تنحر في مذبح الرب المشهور على هذه الأرض وهو منى في يوم العيد الأكبر وبقيّة أيام التشريق ، فقد قال النبي صلى الله عليه

١ - الحج : ٣٨ .

٢ - ابن تيمية : الجواب الصحيح ج ٣ ، ص ٣٢٨ .

٣ - أورد سفر التكوين ٢٥ : ١٣-١٥ أسماء بني إسماعيل : " وهذه أسماء بني إسماعيل حسب مواليدهم : نبايوت بكر إسماعيل ، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسم ، ومشماخ ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمه " العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الخامس والعشرون ١٣ - ١٦ ، ص ٣٩ .

وسلم لأصحابه : (نحررت ها هنا ومنى كلها منحرفا نحرروا في رحالكم)^(١) .

ثم يتحدث النص عن الكعبة مباشرة فتقول الترجمة العربية " : وأزين بيت جمالي " . أما النص الإنجليزي فترجمته : " وسوف أعظم البيت من تسيحي And I will glorify the house of my glory " أما الترجمة التي اعتمدها شيخ الإسلام ابن تيمية فنصها " لتبسي الحلل ، وتزيني بالإكليل مثل العروس " ويعلق على ذلك بقوله : " وذلك إيضاح من أشعيا بشأن الكعبة ، فهي التي ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة " ^(٢) . والكعبة هي البيت الوحيد على وجه الأرض الذي يكسى بأجمل وأفخر أنواع الحرير والقصب وقد تنافس المسلمون عبر العصور في كسوة الكعبة ، ولها حالياً مصنع خاص بتلك الكسوة التي تكلف أموالاً كثيرة .

" من هؤلاء الطائرون كالسحاب وكالحمام إلى بيوتها ؟ " إنهم وفود الحجيج الذين يقدون إلى الديار المقدسة جواً في كل موسم حج في العصر الحديث ، من كل حذب وصب وبحركة جوية لا مثيل لها . " إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشيش - تونس - لتأتي بينيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقديس إسرائيل لأنه قد مجدك " . حقاً لقد ظلت سفن تونس عبر العصور تحمل الحجاج إلى

^١ - صحيح مسلم بشرح النووي باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ح ٨ ، ص ١٩٥ : وأخرجه أبو

داود برقم ١٩٣٧ : وابن ماجه برقم ٣٠٤٨ ، وأحمد في المسند ج ٣/٣٢٦ .

^٢ - ابن تيمية : الجواب الصحيح ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

مكة ، . القادمين من الأندلس والمغرب وصقلية وجزر البليار وسائر
جزر البحر المتوسط ، ومعهم الأموال التي جمعوها لإنفاقها في مكة ،
وشراء الهدى والأضاحي لله تعالى وذلك لأن الله قد عظم مكة وجعلها
قبلتهم إلى يوم الدين .

" وبنو الغريب ينون أسوارك وملوكهم يخدمونك " من هم بنو
الغريب ؟ أليسوا الحكام والسلاطين المسلمين وهم في مجموعهم من غير
العرب ، وليسوا من أبناء إسماعيل إن هؤلاء الذين بنوها وشادوا
علامات حدودها وخدموها عبر القرون بدءاً من السلطان صلاح الدين
الأيوبي الكردي الأصل ومروراً بسلاطين المماليك الذين لا يمتنون بصلة
نسب لبني إسماعيل وانتهاءً بسلاطين آل عثمان الأتراك الذين خدموا
جميعاً مكة والبيت العتيق وتلقبوا على مدى القرون الماضية بلقب خادم
الحرمين الشريفين حيث كانوا يرون في ذلك اللقب شرفاً ما بعده شرف
" وتفتح أبوابك دائماً . نهاراً وليلاً لا تغلق " ومكة هي المدينة الوحيدة
التي ظلت عبر القرون مفتوحة الأبواب لوفود الحجاج والمعتمرين
وانجائورين " لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد ، وخراباً تخرب
الأمم " . وقد شهد التاريخ حرص الدول الإسلامية التي قامت منذ
العصر الأموي وحتى العصر الحديث على بسط نفوذها على الحرمين
الشريفين ولا سيما مكة المكرمة لتحظى بخدمة الكعبة المشرفة ولتضفي
على حكمها صبغة الشرعية في نظر عامة المسلمين .

ويقول النص : " مجد لبنان إليك يأتي السرور والسنديان
والشربين معاً لزينة مكان حرمي وسوف أجعل مكان رجلي معظماً " .

وهذا جرى فعلاً على مر العصور فقد استخدم المسلمون أجود أنواع الخشب من السرو والسنديان لسقف الكعبة في كل التجديدات التي جرت لها ولتزيين المسجد الحرام . وسوف أجعل مكان رجلي معظماً . فالقصد مقام إبراهيم عليه السلام قال تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) ولا يستبعد أن أحبار يهود حذفوا من النص كلمة إبراهيم التي ترجح أنها كانت موجودة بعد كلمة رجلي حتى لا يتجه ذهن القارئ فوراً إلى بيت الله المحرم بمكة ، لأنه لا يوجد مكان لأثر رجلي إبراهيم عليه السلام إلا بجوار البيت العتيق . ومما يزكي هذا الرأي أن أهل الكتاب كانوا يتوقون إلى سرقة مقام إبراهيم ، بدليل ما ذكره الفاكهي بسند صحيح من أن رجلاً كان بمكة يقال له جريج - يهودي أو نصراني - قد تظاهر بأنه أسلم ففقد المقام ذات ليلة ، فطلب فوجد عنده . أراد أن يخرج به إلى ملك الروم . فأخذ منه وضربت عنق جريج (٢) .

" وبنو الذين أحزنوك يسرون إليك خاضعين ، وكل الذين أهانوك يخرون ساجدين عند باطن قدميك . " فمن هم الذين أحزنوا الكعبة ؟ إنهم كفار قريش وسائر مشركي العرب ، الذين أحزنوها بمقاومة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم واضطهاد أصحابه . وفي نهاية المطاف دحروا وقتلوا فخضع أبناؤهم لدعوة الحق ، وساروا إلى الكعبة

١ - البقرة : ١٢٥ .

٢ - الفاكهي : أخبار مكة ج ١ ص ٤٥٢ حديث رقم ٩٩١ .

خاضعين . وكل الذين أهانوها بتعليق الأصنام في جوفها يخشون في الوقت نفسه ساجدين عند باطن قدميها .

ويعمضي النص في الحديث عن مكة إلى أن يقول : " لا يسمع بعد ظلم في أرضك ، ولا خراب في تخومك ، بل تسمين أسوارك خلاصاً ، وأبوابك تسبيحاً " . وهذا الوصف لا ينطبق إلا على مكة ، البلد الحرام ، ولا ينطبق على غيرها فهي التي لا يسمع بعد ظلم في أرضها ، لأن الله سبحانه وتعالى تعهد بنفي الظلم عنها بقوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد نذقه من عذاب أليم ﴾ (١) . ولا خراب يوجد أو سحق في تخوم مكة ، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف منطبقاً على بيت المقدس التي شهدت تخومها في بلاد الشام من الخراب والدمار والغزوات والحروب والفتن على مر العصور ما لم تشهده بلاد أخرى .

أما أسوار مكة التي تسمى خلاصاً ، فهي مواقيت الحج والعمرة ، التي يحرم منها الحجاج ويتخلصون من ملابسهم ومن كل أدران الدنيا ، ويحرمون بالثياب البيضاء الخالية من المخيط ، ويعلنون بالتوبة والتلبية راجين من الله أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأبواب مكة تسبيحاً فعندما يصلها الحجاج يعلنون قائلين " سبحان الله والحمد لله والله أكبر ... " إلى آخر الأدعية والتسابيح المأثورة . ثم يتحدث النص عن النور الذي يضي سماء مكة في كل الأوقات إلى أن يقول : " وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض غصن غرسي عمل يدي لا تمجد . الصغير يصير ألفاً ، والحقير أمة قوية . " وهذا الوصف لم

يتحقق إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس ؛ أي كتب العهد القديم والعهد الجديد .
- أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) .
- المسند ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي ٢٥٠ هـ)
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .
- تحقيق رشدي الصالح ملخص ، مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري ، ت ٢٥٦ هـ)
- الصحيح (فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري . للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني)
- بيروت ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .
- الرجمان (عبد الله الرجمان الأندلسي ، كان حياً سنة ٨٢٣ هـ) . تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب
- تحقيق محمود علي حياة ، القاهرة ١٩٨٤ م .
- الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة ، ت ٢٧٩ هـ)
- الجامع الصحيح (السنن) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وآخرين ، القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

- ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم
ت ٧٢٨هـ)
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
مطابع انجد التجارية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري
ت ٤٥٦هـ)
الفصل في الملل والنحل ، بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ م .
- أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني ، ت ٢٧٥ هـ)
السنن ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩ م .
- رحمة الله خليل الرحمن الهندي .
إظهار الحق . القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .
- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ)
الملل والنحل . القاهرة ١٩٧٧ م .
- الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري المكي
ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤ م) .
القرى لقاصد أم القرى .
تحقيق مصطفى السقا . القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ م .
- عبد الباقي ، محمد فؤاد
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان
ط / دار الفكر . بدون تاريخ .

الفاكهى (أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي ، من علماء القرن الثالث الهجري) .

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه .

تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش .

مكة المكرمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي ، ت ٧٥١هـ) .

هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى

جدة . ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ، ت ٢٠٤هـ)

كتاب الأصنام ، القاهرة ١٩٦٥م .

ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، ت ٢٧٥هـ) .

السنن . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٩٥٣م .

مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري ، ت ٢٦١هـ)

صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م .

النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب ، ت ٣٠٣هـ)

السنن . القاهرة ، ١٣٤٨هـ .

ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ،

ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان . بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- The Holy Bible , New King James Version Copyright . U.S.A. 1982.